حركة الساكن و انفتاح الصورة :

أ. لوت زينب - جامعة مستغانم

ترسم الصورة حركةً من الوعي الجمالي للموجودات ،في إثارة جوهرها الفاعل لوجودها ، والمتفاعل في استمراريتها ودوامها ،فتتمظهر في شكلنة مخالفة لكنها تعيش في نفس عناصرها ،مكونة حقيقةً تَنبثِقُ من بنيتها الطبيعية إلى وعيها الوجودي ، فتكشف وتخترق مكوناتها للوصول إلى تَشكِيلِ المُنتَجْ مُتَفَاعِلاً ومُنفَعِلًا مع القصد ،الذي تنتجه دينامية التَّخيل في ترجمة صورةٍ تَتَعَالق فيها أعلى مستويات التَّعايش اللغوي بالمعرفة الوجودية، (وتجانس المظهر الذي يخاطب عادة مرايا الحواس الدنيا ،وتجانس الجوهر الذي يخاطب الروح في مريا الحواس العليا ،وتستثمر هذا التناقض استثارا فريدا) (1) يُحِيلُ إلى مَرجعية الأنا المتمركزة في تأليف الكون الشعري .

كيان الصورة متصل بالأثر (تكون الصورة كيانا مستقلا بنفسه مكتفيا بذاته فلا هو يشير إلى شيء بعينه في الطبيعة الخارجية أو في الطبيعة الداخلية وهاهنا يكون ارتكاز العمل الفني في تكوينه البحت)(2)وتنحصر في البراعة الفنية في تكيف ملامسات العمل واستقلاليته فيها .

يكتَنِفُ التَّصوير في جلاء الصورة ومكانتها التَّعبيرية، إلى رؤية صاخبة في فهرسة العالم الضِّمني الذي يمتد في ذات الشاعر ،وتخصيص ما يناسب لاستجابة العالم الحسِّي إلى العالم المرئِي، الذي يتموقع في خُصوبة الذاكرة ، والحدس في حلقة وصل للمُستَلزَمَاتِ الدافعة قوةً، وعمقَ تَّجسيم تجليات المشهد والتَّنظِير لأبعَادِهِ ،والمُتَمات التَّوافُقِيَّة بين ما تحمله الصورة من خصوصيات طبيعية ومدركة إلى الإمكانات الواصفة، والمتضمِنَةِ إزاء عالم جديد وفردية جديدة بالارتقاء إلى العقل الفعال، الذي يعيد ترجمة الصور الحاصلة بنشاط ذهني يهتدي بالقياس واستبطان المُخَيِّلة في الأعراض التي تَتَمفصَلُ منها المادة المنتقاة في تشكيل الصورة ،وقد تَضَمَنَّ هذا السِّياق عند القاضي الجرجاني : (واعلم أن قولنا (الصورة) إنما

هو تمثيل وقياس لما نعلمه في عقولنا على الذي نراه بأبصارنا)(3) و(لو كان المعنى يكون معادًا على صورته وهيئته وكان الأخذ له من صاحبه لا يصنع شيئا غير أن يبدل لفظا مكان لفظٍ ،لكان الإخفاء فيه محالا لأن اللفظ لا يخفي المعنى وإنما يُخفيه إخراجه في صورةٍ غير الّتي كان عليها)(4)وهو تحريك سكونه، وجموده في خواصه القارة ،فيتجاوز معقوليته في نماذج تكوينية تمارس أبعاد جمالية في اللغة الشعرية .

الحركة و الكينونة في الفكر الغربي :

يُعبر بوند ezra bound عن الصورة المحكمة بالصورية imagism كاستدعاء للوحة فكرية أو عاطفية ،لذلك هذا التركيب الذي يعطي التواصل بين مستوى التقبل الذي تمارسه الأشكال المنتقاه(تجلي الكينونة بالنسبة لكينونة ما ، حيث الوجود متضمن في فهم هذه الكينونة)(5) لوضع أفعال الحلول والتقمص في عمل المؤولات ،وتحميلها الرؤيا والدلالات وتوصيف مثيرات تعج بالحركة المتنقلة والباعثة والمراوغة ، في جدلية المرئي ،تنامي فضاء الانبعاث ،الى شعرية منفتحة الى أوسع أفق للممارسة .

تضبط الصورة وجودها من خلال تركيب من العلاقات ذلك("بأن وقع العمل الأدبي شيء ومعرفة السيرورة شيء آخر") (6) ، بتمازجها وتطعيم حركتها بالفعل اللغوي الذي يربطه 'هيدجر' martin) (heidegggerبالذات فاللغة عنده نداء كينونة الكائن ،وأن " الوجود الذي يمكن أن يكون مفهوما هو اللغة "عند 'غادامير' (hans georg radamer)،وإذا عكسنا تصور غادامير نجد أن اللغة صورة وجودية فهمها الفنان وطور تقنيات المعرفة الفنية من خلال الأسرار الكونية للمخلوقات(فالكلمات و ممثلات الخصائص القبلية للأشياء في الذهن – الدلالة –هي موضوع الدلالية الشعرية داخل الوحدة الخيالية التي هي الصورة)(7) ،التي تتسم (في كل ما يشكل وحدة فكرية وشعورية تعطي في لحظة زمنية مكثفة واحدة في إحكام) (8)يتم فيها تجاوز الرتابة والجمود الآني للأشياء إلى حدوث تفاعل، يُمكِنُ المعنى من الاستقرار في تلك الخصائص التي تعطيه مساحة، وتمنحه تجانسه مع الحركة المقدرة لتخريج جمالية الأثر .

الصورة و بناء الحركة التصويرية :

يُحَقِقُ التَّصويرُ تشكيلاً متجانسا مخترقاً الرُؤية الثابتة للكون ، منتجاً نماذج كونية مركبة بوضعية تتجانس فيها الظواهر الطبيعية بكيماوية المكونات التي تتخذها نماذج تُحدِثُها القنوات التخيلية ، والطاقة الحاصلة من الخصوصية ،والتميز، والعمق ،والوعي المدرك لتلك المواد ،وإدراك فني بدرجة تفحيم سكونها في تعبئة حركية متواترة في إنجاز يتوخى تكثيف ورمزية المشهد الذي يتنامى متخضرما بين زمنين هما الوعي بضرورة الإنجاز ومستوياته ،و المادة الأولية التي تتزائ معطياتها كبنية جمالية إيحائية في أقصى- درجات التأثير الجمالي بجميع المؤثرات الحاملة المعيار التي تنبعث منه جميع التوقعات في هيكلة هذا المنجز الفني ،(هي ثراء الفكر و تعقد التجربة) (9)داخل الكينونة الشعرية التي تعطي كفاءة انتاجية ،وخبرة في تثميرها ومنحها امكانيات جديدة ومتطورة ،تنفتح منها طاقات تعبيرية خلاقة.

إن الذات هي شخص يتطور مع تَصَورِهِ عالماً آخر يتواجد فيه ،ويجتهد في أن تكون له خاصية بينه وبين الموجودات التي سيعمل لتطويرها ،و إعادة تمثيلها في تدرج الكلام ،فتتحرك مراتب الرموز و الصور من حقلِ الطِّبيعة الخصبة بما تحمل من ثراء في تناظر المخزونات التي تشكل المعنى المحتمل ، وتعاقب المشبه بوجه الشبه منه ،أو تجاوز صفاته إلى مشبه علوي يرتقي بأصل النوع فـ (إذا كانت عناصر الطبيعة حاضرة في هذا الاستبدال ، فإن الذات قد تدخلت في توجيه عناصر خاصة ،ساعدت على إنجاز تنويع الرؤية ، وتقليب أوجه الإنجاز)(10)، كـــما أن الصورة الفنية ترتبط ارتباطا لغويا وخيالياً بالتعبير الحسي- وهذا يؤدي إلى توصيف الدلالة وتعميقها ويصبح المعنى غنياً ومؤثراً في النفس.

ينتج جمال التَّصوير الفني (والثبات الجمالي النوعي الذي يتراءى في مكان محدد في الصورة ،التي تشغل حيزا معلوما في الوقائع الشيئية ،ضمن عموم المساحة المتسعة ،في الفن الجميل ،وعلى هذا وجدنا الصورة تتألف ،من عدد من العناصر ،في الانجاز ،..وأهم هذه العناصر : اللغة و اشكال تراكيبها ، والموسيقى وما تشمل عليه من

ايقاع ووزن ،والإيحاء و ما ينبعث عنه من مشاعر ،ورؤى وصور وأحاسيس،لا محدودة ويمكن أن نضيف للعناصر هذه التخطيط في الصورة ، والتلوين ،والتنويع)(11)،يرتقـــــي البناء من خلال محيط واسع من التصورات التي تكتفي عند إشباع الهدف بالمحمول الفكري بالذات المجسدة لوجودها من خلال الأثر وحسن التبليغ فيه ،ولا بد لهذا البناء أن لا يكون تصميما بلاغيا بحتا أو قدرة لغوية تتجاوز المعطى.

تعتبر القصيدة شكلا معبئًا من تصورات تنتقل فيها رؤية التَّصوير، وهو يأخذ الشكل الذي يُنمِي مسار القصيدة ،ويتخذ من العمل توجها وانتقالا يصنعه في انتاجه التعبيري والتَّشكيلي، عمق الدلالة ،وكثافة المعنى(فليست الصورة استعارة كما نظر إليها البلاغيين والمحدثين ،وليست الصورة عناصر من البلاغة ..ولكن الصورة إنشاء يتحد فيه المادي والمعنوي في وحدة تشكل حقيقة المشهد ،بل قد يتسع المشهد للأكثر من صورة)(12)تترامى أطراف انتماءاتها إلى مصوغات تطويرية لأفعالٍ تتقبل التّمدد والتَّطور و التَّداول ،لآليات التَّوصيل باختلافات الرؤى و الأقانيم الفكرية .

يقدم الشعر اختزالاً لحركة كونية تُكَثِّف حضورها ،وتؤلف أدواتها تَضِيّين سِعَةٍ من المخزونات الرمزية ،الّتي تُهيمنُ على شحن المغلق بإثارة الانفتاح فيه والكشف عن مثيراته الخفية والقبلية (ثمة حد سري خفي وضبابي تبلغه اللغة الشعرية في أعلى درجات تجليها وتثميرها وإبداعها النوعي، يمثل تجاوزه العمل خلقه خرقا لسلامة البنية التعبيرية في اللغة ،وتدخل بعده اللغة في متاهة الإغماض والإبهام والإغلاق ، مثلما يمثل عدم بلوغه تماما وعدم القدرة على تمثل حرارة إعجازه قصورا ابداعيا في استنفاد طاقته وكفاءته كاملة ، على النحو الذي يؤدي في الحالين إلى مشكلة تعبيرية وأسلوبية تخل بالشرط الإبداعي لبنية اللغة الشعرية)(13)حيث يرتبط إثمار القصيدة بحسن تسير قدرتها على إعادة تشخيص المادة الخام إلى عنصر حيوي يبلغ مطية اللذة ، وأفق الانتظار المرتقب.

ترتسم اللوحة التّعبيرية للعمل الشِّعري، في أفق تواصلي منتج ،وخالق على النحو الّذي يستجيب له المتلقي استقبال شفراته (إن الشعر – بناءًا ولغةً وإيقاعًا وصورةً،هو في جوهره لعبة لغة ، تكون قادرة في إجراءاتها الميدانية على أن ترغم المتلقي ليكون جزءا فاعلا منها لكي تستكمل اللُّعبة شروط نجاحها)(14)هذا النجاح الذي يتخذ من الاستقبال أهمية التنظير إلى اشتغالات الوظائف البنيوية للغة ، والحصول على اجراءات تستقطب بدلالة توالدية ،تُحدث شعرية الوعي المؤثر في شبكة أنموذجية تدرك المسالك الميتالغوية والمرجعية ،و الانفعالية لايجاد مركزية للانفتاح الجمالي .

حركة الساكن في انفتاح النص الشعري :

يعتبر الساكن فعلا يحْجُمُ عن الحــركة ويسكُنُ في خواصه التي تميزه ،وتثبت له فرادته عن الخواص الأخرى المحيطة ،والمُتَّجَنِبة المُشابهةِ فيه ،وحين يتشكل المعنى ، يتحرك الساكن إلى متحرك يفيض بجوانب فِعله المُتَخيّل ويناقض حتى وجوده الأولي ليلتمس من القرابة اللّغوية، حدوث صفات مشتركة تحرك مجرى الفعل ، وهو يصنع في جمالية مجازية و فرادة تميزه وتخصصه وتنظم فعله المتحرك منه (وهو ما ينجم عن التركيب من خلق تراكيب لغوية مميزة قادرة على استثارة الخيال وبعث الفكر ،واستثارة الجوانب الوجدانية والعاطفية ،ويتم ذلك من خلال تراكيب لغوية خارجة عن الأصول الوضعية للغة ،واستخداماتها العادية لها ، وقد عرفت هذه التراكيب عمليا في نقدنا القديم بالتشبيه ،و الاستعارة ،والمجاز ، والكناية ،وجمعت في النقد الحديث تحت مصطلح الصورة الفنية)(15) التي تتجاوز وتعدل عن وضعها الساكن ، لتتركب في مسار فكري للمنتج الفني، الذي يكشف التغيرات في علاقات الإبدال والاستعارة والتشبيه والمجاز بمقارباته ، في احتواء الحركة في الساكن وتجلي الأشياء وتمثيلها عاطفيا وشعريا في بث صُورٍ تَمنحُهَا قيمةً تأنس لمستويات البناء الفكري وتشكيل نوع يميز مِخمَلِيَّتَها .

تنشطر الحركة من البلاغة التي تثيرها الصورة (فيما أن يمس الساكن أو ما شأنه السكون ، حتى تدب فيه الحياة ، فينتفض حيا متحركا ، وتخيل هذا الشيء الساكن في الطبيعة حيا متحركا عن طريق الحس والخيال يملأ النفس شعورا بالجمال)(16)،حين تصوره اللغة الشعرية في عملية الانجاز بأنوية تحكم بين الخواص الفعلية للمادة وتجهيزها باحلال قدرتها الطبيعية في معادلة المكون اللغوي وتبصير رؤية كلية تحدد اشكالية التوافق بين القطبين .

يتم البناء في القصيدة على منحى من الحركة والديمومة التي تحيل إلى اعادة تكوين المرئي،إلى (ولفضاء الطبيعة بما يمتلكه من قدرة على توجيه سلوك الكون البشري وتفكيره حضورها المتدخل في صياغة معالم الكون الشعري في القصيدة)(17)التي تنتج من انفعال تلك القدرة بالمتنافرات الموجودة خارج الاطار المعلمي للرؤية لتصبح حركة لعصب القصيدة وسيرها في الاطار الفني.

الصورة ومرئية الحركة في الوجود :

يستمد العمل الفني تجليه ،ويكتنف خلقه وتفرده،حين يصغي إلى ذات الفنان ويستلهم من حولها خواص فنية تشتمل حضورها الواعي حوله ،وقد تناول الفلاسفة (ظاهرة الشعر باعتبارها تخيلا ومحاكاة يقوم على التشكيل المتميز للواقعات والموضوعات أن انضبط مجال الشعر بحدود الموجود أو ممكن الوجود)(18) وتُحضِرُ واقعه المرئي لتدخل بسلاسة إلى مخيلته،ترقى إلى تلك الصور الجميلة التي تحركها المعاني والأساليب ،وتبسط في حضورها كل ما أنتجته الأخيلة من أبعاد تتفاوت حسب الانعكاس الجمالي لنفسية الفنان لحظة الإبداع ،لتحط رحالها وقد صاغت لغة شعرية مستعدة لمواجهة فلسفة واختلاف و توتر في إنشاء أبعاد مختلفة لتأثير ،ولا تكتفي لأن في الكفاية هجر للعمل الذي يحمل بداخله كائنا متحركا،بالصور والمعاني ،وانزياحات بمختلف مستوياتها فلا تكفي دراسة واحدة لتحدد نظرة مستوية أو معتدلة.

يَمَكِنُ الشعر إلى كشف المَفَارقَات التي تعيد رُسُوَ الظواهر ، من خلال الابدال الخفي الذي يمنح الأشياء متغيرات ،تثير الانفتاح على المرئي باللغة المخيلة (يكتسب التخيل معنى آخر " التأثير " فتخييل حقيقة ما أو أمر ما يعني إعادة صياغته أو تشكيل هذه الحقيقة تشكيلا جماليا مؤثرا فيصبح معنى التخيل التشكيل والتأثير وهذان المعنيان يشكلان القياس الشعري ـ فالتشكيل هو المقدمة المنطقية لهذا القياس والتأثير هو النتيجة المنطقية المترتبة على تلك المقدمة) (19)تعد المؤثرات في النص الشعري هي تَمَثُلُ اللامعقول و اللامستقر،المُتَّسع في انفراده وخصوصيته ، المنفتح الرؤى من مجموع الممكنات .

يخُصُ التوافق الحسي في الشعور،والتخيل من الذهن حضورا للصور التي تعي جمالية تقدير العناصر المؤلفة، (خاصة التشبيه والاستعارة لقدرتهما الخاصة على التأثير لاعتمادهما على الحس بشكل أساسي ، حتى ليمكن القول بمهمة إن المهمة التعليمية والتربوية والأخلاقية للشعر كان تأثيرها أيضا في التركيز على الطابع الحسي- للتصوير عموماً ــ خاصة التشبيه والاستعارة من حيث أنهما يقومان بتقريب الأفكـــار المجردة عن طريق إيجاد ما يماثلها أو يشابهها حسياً)(20)تعد التصوير البياني تقريبا بين حقيقتين الوجود الحسي والإدراك الذهني ،الذي يشبه ويستعير من الموجودات ، ويمثل الأشكال البعيدة بطريقة صحيحة ترفع القدرة التعبيرية إلى تحسين هيئتها ،وبلوغ ذروة ابتكاره تنتقل من التصورات الذهنية إلى القيم الفنية الجمالية .

يمثل العالم الخارجي تواصله بالحركة ، ويَمْثَّلُ الفَنُ إيصال هذه الحياة الحَرَكِيَّة ومماثلةِ العناصرِ الّتي تكونها وتتكون منها جزئيات الشيء الموجود، مما يخلق أنظمة تركيبية بالنظم والتأليف الذي يُوغِلُ بالشِّعرية ، ليصبح انفتاحها ينشطر من حركة الساكن لغويا ، إبداعا للذهنيات في مفارقاتها الرؤيوية ، و ذواتها التي تخص من العينات اختصاصا وتباينا أدبياً، ولهذا فإن ("اللغة ستصبح لغة الوجود مثلما الغيوم هي لغة السماء "لغة ضبابية هاربة وفي ذلك وضوحها ، إنها لغة القلق التي تهمس في انفتاح الوجود على معناه)(21) ، وتُنَضِدُ المشاهدات التَّصويرِية البعيدة والمفارقة لكنها سليمة القرابة مع المتعة والمؤانسة ، والتَّفشي في إمكانات نصية تثير الجدل واللَّذة مع المقروء ،و محاولة تثمين الفراغ الباني .

يُسقِطُ الشاعر من محور الاختيار الى محور تأليف ، تنظيما لعناصر الحدث الإبداعي ، الذي يلبس الغموض في تلك المماثلة مع تدعيم المعنى الوجودي وتفعيله لغويا (لا تظهر الحقيقة إلا في العمل الفني وذلك حين يتم انفتاح الوجود من حيث ماهيته ، إذ لا ينبغي ألا يفهم العمل الفني بوصفه تعبيرا عن مشاعر الفنان بل هو يجلب الوجود نفسه إلى ضوء الحقيقة)(22)، في تمثيله وتجسيد محتوياته في بنية لغوية ،وشعرنة الكون موازياً للغرابة في تحول الأشياء التي نعرفها ، ونعيد معرفتها بشكل من الانطولوجيا * الذي ترى (العالم ينفتح من خلال العمل الفني)(23) الذي يعد تدرجا لونياً يمتزج برؤيا الأشياء ،وطبيعة استقرارها في المد اللغوي المنبعث من الطاقة الفنية التي تختزنها مخيلة الفنان ونورانيته.

تحيل الرؤية العقلية للعالم من خلال الأعمال الفنية (أن التصوير الشعري يعد كشفا لخبايا محجوبة عن النظر ، وغاية المبدع إزالة الغشاوة عنها لإضافة المتعة والإثارة على عمله ،لذلك ينبغي التفريق بين نوعين من الوجود ، وجود الشيء حاضرا ماثلا أمام البصر- ووجوده غائبا متمثلا أمام البصيرة ومعنى هذا القول أن البصيرة هي وسيلة التعرف إلى غير المرئي ،بينما البصر هو الذي يلتقط كل خارجي سطحي من الأشياء ومكوناتها المحسوسة)(24)التي تتبوأ المتغيرات الحاصلة في مكاشفة الغائب بالبصيرة ومحاور الحاضر من اسقاطات البصر.

المراجع :

(1)محمد صابر عبيد ،مرايا التخيل الشعري ،إربد عالم الكتب الحديث ، ط\1، 2006 م ،ص 2

(2)زكي نجيب محمود ، في فلسفة النقد ،دار الشروق بيروت،القاهرة ،ط 2\، 1983 م، ص .5

(3)عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز في علم المعاني ، شكله وشرح غامضه وخرج شواهده وقدم له ووضع فهارسه الدكتور :ياسين الأيوبي المكتبة العصرية صيدا بيروت دط، 2003م، ص . 466

(4)المصدر نفسه ص. 467

(5)عمارة ناصر ،مجلة "أيقونات"العدد،منشورات رابطة "سيما للبحوث السيميائية "، الجزائر، العدد الأول 1يناير 2010 م، ص.33.

(6)أومبيرتو إيكو، حاشية على اسم الوردة، آليات الكتابة ،تر سعيد بنكراد ،دار الكرامة للنشر والتوزيع 2012م ص 20

(7)(8) العربي الذهبي،شعريات المتخيل اقتراب ظاهراتي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدر البيضاء، ط \1 ،2000م ص195

(9)مصطفى ناصيف ،الصورة الأدبية ،دار الأندلس بيروت ،ط /2 ،1982م ص. 216

(10)حسن مسكين، الخطاب الشعري الجاهلي رؤية جديدة المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ،المغرب، ط/1 ،ص .156

(11)سمير علي سمير الدليمي ،الصورة في التشكيل الشعري دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، العراق بغداد، ط /1 ، 1990 م ،ص.27

(12) حبيب مونسي شعرية المشهد في الإبداع الأدبي ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية ،بن عكنون الجزائر 2009م ،ص,11

(13)محمد صابر عبيد ،العلامة الشعرية ، قراءات في تقانات القصيدة الجديدة عالم الكتاب الحديث ، اربد ،الأردن ط/ 1، 2010 م1431 هـ ،ص 101

(14)المرجع نفسه ص.161

(15)سامي محمد عبابنة، التفكير الأسلوبي رؤية معاصرة في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الأسلوبيات الحديثة ،علم الكتب الحديث ، إربد الأردن ،الطبعة2 2010م ،ص 117

(16)صلاح عبد الفتاح الخالدي نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ،دار الشهاب،باتنة ،الجزائر 1988 م،ص145

(17)محمد صابر عبيد ، العلامة الشعرية قراءة في تقانات القصيدة الجديدة ،عالم الكتب الحديث اربد الاردن 2010 م ص 201

(18) الأخضر جمعي ،نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الساحة المركزية بن عكنون ، الجزائر ط\1 ،:1999 م ،ص 44

(19)ألفت كمال الروبي نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، 2007 م ،ص.117.

(20)المرجع نفسه ص 206

(21)إبراهيم أحمد ، أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدجر ، منشورات الاختلاف ،الجزائر ،ط \1 ، 2008م، 1429هـ ،ص88

(22)المرجع نفسه ص .112

(23)المرجع نفسه ص. 132

(24)مفتاح محمد عبد الجليل ، نظرية الشعر المعاصر في المغرب العربي ،مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط\1 2007م – 1428هـ ، ص. 209.